

الحرية الدينية بالأندلس القاعدة والشذوذ

بقلم :
أ. د. محمد الطالبي

اليوم الحرية الدينية تشغل بال كل الناس، أفرادا وجماعات، وتجنّد أقلام المفكرين غربا وشرقا، جنوبا وشمالا، وتكون حقًا من حقوق الإنسان الأساسية، فلا يكاد يخلو منها دستور من دساتير الدول المنخرطة في منظمة الأمم المتحدة. لكن هل القضية جديدة بالنسبة للإسلام؟

يبدأ محمود شلتوت، الذي ولي وظيفة شيخ الأزهر سابقا، مؤلفه «القرآن والقتال» هكذا: «قال لي صديقي العالم: ... كيف تقول في ردك على مصطفى جحا⁽¹⁾: لا إكراه في الدين؟ — قلت له: يا صاحبي لست أنا الذي جئت بهذا القول، بل القرآن الكريم يقول ذلك! — قال: ولكن هذه الآية منسوخة بآية السيف! — قلت: ومن نسخها؟ — قال: كثير من العلماء يقولون بنسخها. — قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! ثم تركته وانصرف⁽²⁾».

انصرف محمود شلتوت ليؤلف «القرآن والقتال» حيث يقيم الدليل على أن الإسلام دين حرية الاعتقاد ومسالمة الناس، «دين السلم والسلام، دين المحبة والوفاء⁽³⁾». هكذا كان الإسلام بالأندلس المسلمة في عصرها الذهبي، قبل أن تمرقها الفتن والحروب.

(1) يحيل محمود شلتوت على: «رسالة محنة العقل في الإسلام، أو محنة الإسلام في عقول أدعيائه».

(2) محمود شلتوت، «القرآن والقتال»، ط. دار الفتح، بيروت 1403/ 1983، ص. 5-6.

(3) محمود شلتوت، نفس المصدر، ص. 9.

كانت دار الإسلام عموماً تعددية في العصر الوسيط الذي يهتَمنا، تتعايش فيها تعايشاً سلمياً عادة مجموعات عريضة غير مسلمة، مسيحية على الخصوص ويهودية، وكانت هذه المجموعات، مهما نالها من حين إلى حين من شدايد لا تفتأ أن تتقشع — شأنها في ذلك شأن كل الأقليات عامة بدون استثناء عصرنا ودوله المتحضرة ! — تتمتع عادة بشبه استقلالية ذاتية توفر لها الحريات الدينية الأساسية، والتحاكم في شؤونها إلى حكامها، فلا يطبق عليها حكم الإسلام وشريعته. وكانت الأندلس في عصرها الذهبي مثلاً مرموقاً في هذا الصدد، تتعايش فيها الشرائع الدينية المختلفة تعايشاً يحترم حرية الاعتقاد والسلوك. فلم يفرض الإسلام فرضاً على أحد، ولم يجبر أحد على اعتناقه بالقهر، أو بأي نوع من أنواع الضغوطات، خلافاً لما عومل به المسلمون عندما أصبحوا بدورهم أقليات تحت لواء الحكم النصراني، فحملوا على التنصر قهراً، وأخرجوا من ديارهم قسراً، وطردوا طرداً.

وكان الموثقون بالأندلس، عملاً بأحكام الشريعة وبنص القرآن الصريح الخاص بعدم الإكراه في الدين، يؤكدون على حرية الاختيار عندما يسلم نصراني، أو يهودي أو مجوسي، ويلتحقون على ذلك إلحاحاً عندما يكتبون وثيقة إسلامه، فينصون بوضوح كامل لا لبس فيه أنه حر مختار، لا خائف من شيء ولا طامع في شيء، وأنه مدرك تمام الإدراك لما ترك من معتقدات سابقة، واعتنق من معتقدات جديدة، إيماناً بها ورغبة فيها، وأنه واع كل الوعي بما توجه تلك المعتقدات من فرائض وواجبات.

ولقد ترك لنا فقيه من أشهر فقهاء الأندلس وأعرفهم بالتوثيق، وهو محمد بن أحمد الأموي المعروف بابن العطار (330 — 399 / 942 — 1009)، أنماط الوثائق وأشكالها التي كان الموثقون — ونحن نسميهم اليوم العدول — ينسجون على منوالها بالأندلس في مختلف القضايا التي تعترضهم وتستوجب التوثيق، وذلك في مؤلفه «كتاب الوثائق والسجلات»⁽⁴⁾. ومن ذلك النمط الذي كان معتمداً في تحرير «وثيقة إسلام النصراني»، ونحن ننقله هنا بأكمله على سبيل المثال⁽⁵⁾.

وثيقة إسلام النصراني

أشهد فلان بن فلان الإسلامي، شهداء هذا الكتاب، في صحته وجواز أمره وثبات ذهنه وعقله، أنه نبذ دين النصرانية رغبة عنه، ودخل في دين الإسلام رغبة فيه. وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله وخاتم رسله؛ وأن المسيح عيسى بن مريم، صلى الله عليه وسلم، عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه. واغتسلا

(4) تحقيق ونشر ب. شالميتا (P. Chalmers) وف. كورنيطي (F. Corriente)، مدريد 1983.

(5) ابن العطار، كتاب الوثائق والسجلات، ص. 405-406.

لإسلامه وصلّى، ووقف على شرائع الإسلام: الوضوء، والصلاة، والزكاة، وصيام شهر رمضان، وحج البيت على من استطاع إليه سبيلا، وعرف حدودها ومواقبتها. فالتزم ذلك تمسكا بالإسلام واغتيابا بالدخول فيه، وحمدا لله على ما ألهمه إليه منه، ومنّ عليه به فيه. وعلم أنّ الذين عند الله الإسلام، وأنّه ناسخ لجميع الأديان، وأنّه يعلو ولا يعلى عليه، وأنّ الله لا يقبل سواه ولا يرضى غيره.

كان إسلامه — طائعا آمنا، غير فارّ من شيء، ولا مكروه، ولا متوقع لأمر — على يدي فلان الفلاني. وإن كان حاكما قلت: «على يدي فلان بن فلان قاضي الجماعة بقرطبة»، أو «قاضي كذا»، أو «صاحب أحكام الشرطة»، أو «المدينة»، أو «السوق»، أو «الردّ بقرطبة»، أو «المظالم بموضع كذا».

شهد، على إشهاد فلان بن فلان الإسلامي على نفسه بما ذكر عنه في هذا الكتاب، بعد إقراره بفهم جميعه والتزامه بما فيه عنه، منّ عرفه وسمعه منه، وهو بالحالة الموصوفة فيه. وإن جعلت، مكان «من عرفه»، «من وقف على عينه»، أجزاك.

ثم تقول: «وذلك في شهر كذا من سنة كذا.» و«الكتاب نسختان»، أو «على نسخ.» وإن كانت واحدة عند ثقة فهو حسن، والإكثار منها أقوى وأفضل، إن شاء الله.

الذي يهمنّا بالخصوص من هذه الوثيقة — زيادة عمّا بها من تفاصيل أخرى تتعلق بالمؤسسات وصلاحياتها — هو الإلحاح على كامل الحرية التي بها يعتقد معتنق الإسلام دينه الجديد، والتأكيد على صدق الاختيار من دون خوف ولا طمع. ونجد نفس الإلحاح على حرية الاختيار وصدقه في «وثيقة إسلام اليهودي»⁽⁶⁾، و«وثيقة إسلام المجوسي»⁽⁷⁾، و«وثيقة إسلام النصرانية ذات الزوج»⁽⁸⁾، و«وثيقة إسلام المجوسية»⁽⁹⁾ مع تفاصيل إضافية تهتم كلّ دين من هذه الأديان.

توفّر الحريات الدينية بالاندلس خلق مناخا طيبا، فكانت التعددية واقعا ملموسا معاشا في كلّ مستويات العلاقات البشرية اليومية. فكانت العلاقات حسنة بين المسلمين وأهل الكتاب في البلاط وفي الأسواق والأندية. كان يجلس بعضهم إلى بعض يتجادلون أطراف الحديث تجمع بينهم لغة واحدة. وقد تعقد المجالس الأدبية بدكان الإسرائيلي كما تعقد بفناء غيره من المسلمين. ونكتفي في هذا الصدد بمثال واحد. فهذا ابن حزم (384 — 456 / 994 — 1064)، الفقيه الظاهري الشهير، صاحب «الفصل في الملل والأهواء والنحل» الذي يرّد فيه بشدة على اليهود والنصارى، يروي ما يلي:

(6) نفس المصدر، ص. 409-410.

(7) نفس المصدر، ص. 413-414.

(8) نفس المصدر، ص. 415-416.

(9) نفس المصدر، ص. 417-418.

«ولقد كنت يوما بالمرّة قاعدا في دكان إسماعيل بن يونس الطبيب الإسرائيلي، وكان بصيرا بالفراسة محسنا لها، وكنا في لَمّة، فقال له مجاهد بن الحصين القيسي: ما تقول في هذا؟ وأشار إلى رجل متبذ عتا ناحية، اسمه حاتم ويكنى أبا البقاء. فنظر إليه ساعة يسيرة ثم قال: هو رجل عاشق. فقال له: صدقت، فمن أين قلت هذا؟ قال: لُتِهت مفرط ظاهر على وجهه فقط، دون سائر حركاته، فعلمت أنه عاشق وليس بمريب⁽¹⁰⁾».

لكنّ كلّ قاعدة لها شذوذ. يبدو أنّ العلاقات أخذت تسوء بين الجانبين بعدما اشتدت حملات النصارى على الأندلس الإسلامية في حروب الاسترجاع، وبعد سقوط طليطلة (منتصف محرّم 478 / منتصف ماي 1085) على الخصوص. افتك الأذفونش (Alphonse) طليطلة من يد صاحبها القادر بالله ابن ذي النون بعد حصار دام بضع سنوات، ولم يستطع يوسف بن تاشفين المرابطي استعادتها بالرغم من انتصاره في وقعة الزلاقة (Sagrajas) في 22 رجب 479 / 2 نوفمبر 1086. ولم يستطع الموحدون إرجاع الوحدة والاطمئنان إلى الأندلس، وانتهى أمرهم إلى كارثة العقاب (Las Navas de Tolosa) سنة 609 / 1212، بعد الأمل الذي واكب انتصار الأرك (591 / 1195).

الحروب بين المسلمين والنصارى غربا بالأندلس، وشرقا تبعاً لحملات الصليبيين، أسفرت حتما عن تقلص روح التسامح الديني. وهذا ما يشرح الإجراءات القمعية التي لجأ إليها، في آخر خلافته، الخليفة الموحد أبو يوسف يعقوب المنصور (580 — 595 / 1184 — 1198) الذي قاد حملة الأرك. ولا شكّ أنّه اتخذ هذه الإجراءات القمعية بعد انتصار الأرك، وهكذا يرونها في «المعجب» عبد الواحد المراكشي⁽¹¹⁾:

«وفي آخر أيام أبي يوسف أمر أن يميّز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصّون به دون غيرهم. وذلك ثياب كخلية وأكمام مفرطة السّعة تصل إلى قريب من أقدامهم. وبدلاً من العمائم كلّونات على أشنع صورة كأنّها البراديع تبلغ إلى تحت آذانهم. فشاع هذا الزي في جميع يهود المغرب، ولم يزالوا كذلك بقية أيامه وصُدّراً من أيام ابنه أبي عبد الله، إلى أن غيّرهُ أبو عبد الله المذكور، بعد أن توتّلوا إليه بكل وسيلة، واستشفعوا بكلّ من يظنون أنّ شفاعته تنفعهم. فأمرهم أبو عبد الله بلباس ثياب صفر وعمائم صفر، فهم على هذا الزي إلى وقتنا هذا، وهو سنة 621.

وإنّما حمل أبا يوسف على ما صنعه من إفرادهم بهذا الزي وتمييزه إياهم به، شكّه في إسلامهم. وكان يقول: لو صحّ عندي إسلامهم، لتركهم يختلطون بالمسلمين في أنكحتهم

(10) ابن حزم، طرق الحمامة، تحقيق صلاح الدين القاسمي، الدار التونسية للنشر، 1985، ص 67.

(11) عبد الواحد المراكشي، المعجب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة 1383 / 1963، ص

وسائر أمورهم ؛ ولو صحَّ عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم، وجعلت أموالهم فينا للمسلمين. ولكني متردد في أمرهم.

ولم تتعقد عندنا ذمة ليهودي ولا نصراني، منذ قام أمر المصامدة. ولا في جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة.

إنما اليهود عندنا يظهرون الإسلام، ويصلون في المساجد، ويقرؤون أولادهم القرآن، جارين على ملتنا وستتنا. والله أعلم بما تكن صدورهم وتحويه بيوتهم.»

كيف أقدم الخليفة أبو يوسف على مخالفة صريح نص القرآن: «لا إكراه في الدين» (البقرة، 2 : 256) ؟ الجواب نجده في القول بأن هذه الآية منسوخة بآية القتال التي أشار إليها الشيخ محمود شلتوت. وكان من القائلين بنسخها أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي (468 — 543 / 1075 — 1148)، المفسر، من علماء إشبيلية وفقهائها الأئمة، صاحب «أحكام القرآن». فهو يؤيد الإكراه على الإسلام بالتفريق بين الإكراه على الباطل، والإكراه على الحق. فإن كان الأول مرفوضا، فالثاني واجب. وهذا ما يذهب إليه في قوله:

«لا إكراه : عموم في نفي إكراه الباطل. فأما الإكراه بالحق، فإنه من الدين. وهل يقتل الكافر إلا على الدين؟ قال، صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله. وهو مأخوذ من قوله تعالى: [وأقاتلهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله. وبهذا يستدل على ضعف قول من قال إنها (غير) منسوخة». (12).

ويضيف ابن العربي تأييدا لمذهبه استدلالا ثانيا نفسانيا اجتماعيا، فيقول: «وذلك أنهم يؤخذون أولا كرها، فإذا ظهر الدين، وحصل في جملة المسلمين، وعمت الدعوة في العالمين، حصلت لهم بمشافتتهم، وإقامة الطاعة معهم، النية، فقوي اعتقاده، وصحَّ في الدين وداده، إن سبق لهم من الله تعالى توفيق. وإلا أخذنا بظاهره، وحسابه على الله» (13).

ولا شك أن للأحداث التاريخية التي كانت جارية بالأندلس في زمن ابن العربي دخلا قويا في تأويله وميله إلى الإكراه على الإسلام. وذلك أنه كان يخشى ويتوقع ما وقع بالفعل من خروج الأندلس من دائرة الإسلام، وحمل أهلها من المسلمين على التنصر بالعنف من طرف الكنيسة الكاثوليكية ودواوين التفتيش، ولم تعترف الكنيسة الكاثوليكية بالحرية الدينية إلا بعد فاتكان الثاني سنة 1964. وهنا يتساءل المؤرخ: هل كانت تخرج الأندلس عن دائرة الإسلام لو واجه المسلمون المثل بالمثل، وأخذوا بآراء ابن العربي؟!

(12) ابوبكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، «أحكام القرآن»، ط. دار الجبل، بيروت، 1408 / 1988، ج 1 ص 233.

(13) نفس المصدر، ص 233-234.

ولا شك أيضا أن مما شجّع الخليفة الموحد أبي يوسف على أخذ قراره إسلام كثير من اليهود — إسلام يقين أو تقيّة؟ — ومنهم الرياضي والطبيب المغربي الشهير، السموأل بن يحيى (توفي 570 / 1174) صاحب «إفحام اليهود»⁽¹⁴⁾، انتقل من اليهودية إلى الإسلام بعد رؤية النبي في منامه، ورؤية نبي الله سمواثيل. أوحى هكذا إلى الخليفة أبي يوسف بقراره، الذي يخالف تماما التسامح العريض الذي كان قاعدة الحياة الاجتماعية بالأندلس المسلمة، جملة من العوارض المناخية والتاريخية والفكرية الناشئة عن الشعور بالخطر الذي كان يهدّد دار الإسلام غربا وشرقا. فكان هذا القرار شذوذا ظرفيا ووقّيا بالنسبة إلى القاعدة، قاعدة التسامح وعدم الإكراه وتوفير الحرية الدينية لكل فرد طبقا لتعاليم القرآن الواضحة. فموت الخليفة مات القرار الذي لم يعمر أكثر من بضع سنوات، وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعي الذي يوفّر التعايش السلمي بين الإسلام وغيره من الأديان. ونحيل، لأكثر تفاصيل بالنسبة لكامل المغرب، على مقالنا: «المسيحية المغربية : من الفتح إلى انقراضها»⁽¹⁵⁾ /

المكتبة الأندلسية

- 1 — ابن النقّاش الزرقالة : الشكّازية (فلك) تحقيق د. روزي بوج، طبع جامعة برشلونة — معهد «مياس بايكروزا» للتراث العلمي العربي 1986.
- 2 — محمّد بن الرّقام الأندلسي : رسالة في علم الظلال تحقيق د. جوان كرنّال (نفس الجامعة السابقة والمعهد) 1988.
- 3 — ابن سعيد : المقتطف : تحقيق : د. سيّد حنفي حسنين. طبعة مصر 1984.
- 4 — ابن فركون . مظهر النور . تحقيق : أ. د. محمد ابن شريفة الدّار البيضاء 1991.

(14) حقّق الكتاب موسى برلمان (M. Perlmann)، ط. أكاديمية البحوث اليهودية، نيويورك (New York) 1964؛ وأعاد تحقيقه عبد الله الشرفاوي، الرياض 1984.

(15) طبع بالفرنسية بعنوان : Le Christianisme maghrébin: de la conquête musulmane à sa disparition; dans Indigenous christian Communities..., edited by M. Gervers and R.J. Bikhazi, Toronto (Canada) 1990, p. 313-355